مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (4)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (4) 2017

نظريّة النّحو الوظيفيّ: النّشأة والتّطوّر.

الدّكتور محمّد خير الفوّال*
خديجة رخاميّة**

(تاريخ الإيداع 1 / 2 / 2017. قبل للنشر في 20 / 7 / 2017)

□ ملخّص □

يتطرّق هذا البحث _بداية_ لمفهوم نظريّة النّحو الوظيفيّ، وأهمّ التّطوّرات التي طرأت عليها منذ نشأتها إلى وقتنا الحاليّ، ثمّ يقف على جذورها في تراثنا العربيّ، ويشير إلى أشهر العلماء الذين دعَوا إلى تخليص النّحو العربيّ ممّا علق به من تفريعات تثقل كاهله وتعرقل مسيرته، أمثال الجاحظ الذي راح يدعو في إحدى رسائله إلى الاقتصار في تعليم النّحو للصّبيّ على الموضوعات الأساسيّة التي تؤدّي إلى السّلامة من فاحش اللّحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه. وينتقل البحث بعد ذلك إلى الحديث عن مبادئ نظريّة النّحو الوظيفيّ وأهدافها، وينتهي بخلاصة تبيّن أهمّيّتها، وتدعو إلى ضرورة تطبيقها في الميدان التّربويّ.

الكلمات المفتاحيّة: نظريّة النّحو الوظيفيّ_ النّحو _ الوظيفيّة_ الميدان التّربويّ.

* أستاذ_ قسم المناهج وطرائق التّدريس_ كلّيّة التّربية_ جامعة دمشق_ سورية.
** طالبة دراسات عليا (دكتوراه)_ قسم المناهج وطرائق التّدريس_ جامعة دمشق_ سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (4)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (4) 2017

Theory of functional grammar : Origin and evolution.

Dr. Mohammad Khair Al-Fawal*
Knadeja Rkhamya**

(Received 1 / 2 / 2017. Accepted 20 / 7 / 2017)

□ ABSTRACT □

this research gives notice about the concept of theory of functional grammar and the most important developments in it since its inception to the present time, then standing on its roots in the heritage of the Arab, refers to the famously of scientists whom have called for ridding the Arabic grammar, which suspended its ramifications overwhelmed and hamper his gift, such as Al_jahiz which claimed the calls in one of his letters to the limitation in the instruction as to the boy on the core issues that lead to the safety of obscene melody, and the amount of the ignorance of the common folk in the book that he wrote, and felt that chant, and something that he described. Search moves then to talk about the principles and objectives as functional theory, And it ends with a summary showing its importance, and calls for the need to apply its principles in the field of education.

Key words: theory of functional grammar _ grammar _ educational field.

* **Profess at the faculty of Education, university of Damascus , Syria.**
****Postgraduate student, faculty of Education, university of Damascus, Syria.**

مقدّمة:

تمثّل نظريّة النّحو الوظيفيّ واحدة من أبرز النّظريّات اللّغويّة في العصر الحديث. إنّها نظريّة لسانيّة عرفت طريقها إلى الدّراسات اللّغويّة، بعد أن أقرّ دوسوسير بأنّ الوظيفة الأساسيّة للّغة هي الوظيفة التّبليغيّة؛ أي التّبليغ أو التّواصل بين النّاس، وعُدَّ وقتَها هذا التّوجّه، اتّجاهاً جديداً في الدّراسة اللّغويّة، يقف موقفاً نقديّاً من التّوجه التّاريخيّ أو المقارن اللّذين سادا الدّراسات اللّغويّة قبل القرن العشرين.

و لم يكن العرب بعيدين كثيراً عن هذه النّظريّة. فقد دخلت نظريّة النّحو الوظيفيّ عالمنا العربيّ على أيدي مجموعة من علماء اللّغة كان أبرزهم أحمد المتوكّل الذي أدخلها المغرب العربيّ، لتشمل بعد اتّساعها عدداً كبيراً من دول الوطن العربيّ.

إنّ نشوء نظريّة النّحو الوظيفيّ في عصرنا الحديث على أيدي علماء غربيّين لا ينفي وجود إرهاصات لها في تراثنا العربيّ؛ فقد دعا العديد من علمائنا العرب القدامى إلى تخليص النّحو ممّا علق به من تفريعات تثقل كاهله، وتعرقل مسيرته، ولعلّ أشهر هؤلاء العلماء الجرجانيّ، وابن خلدون، والجاحظ الذين نادَوا بالاقتصار من النّحو على ما يفيد المتعلّم فكانت نداءاتهم بذوراً أوليّة لنظريّة النّحو الوظيفيّ موضوع حديثنا في هذا البحث.

أهمّيّة البحث، وأهدافه:

انطلاقاً من أهمّيّة نظريّة النّحو الوظيفيّ، وإيماناً منّا بالدّور الذي أدّته في مسيرة اللّغة واللّسانيّات، سنحاول في هذا البحث تسليط الضّوء على مجموعة أمور تتّصل بها؛ فالبحث عبارة عن مقولات نظريّة تسعى إلى تقديم الفائدة للمتلقّي، وذلك من خلال التّعريف بمفهوم نظريّة النّحو الوظيفيّ، والحديث عن نشأتها كنظريّة لغويّة ذات قواعد محدّدة، وذكر جذورها في تراثنا العربيّ، ومن ثمّ الوقوف على أبرز مبادئها وأهدافها. متبعين ذلك كلّه بذكر أهمّيّتها والدّعوة إلى ضرورة تطبيقها في الميدان التّربويّ.

منهجيّة البحث:

اتّخذ البحث من المنهج الوصفيّ سبيلاً للوقوف على نظريّة النّحو الوظيفيّ، ورصد أهمّ التّطورات التي رافقتها منذ نشأتها إلى وقتنا الحاليّ، وذكر أبرز المبادئ والأسس التي قامت عليها... فهو المنهج الذي يتناسب مع هذا النّوع من الدّراسات؛ إذ إنّه يقوم على وصف الظّاهرة وتحليلها، و الوصف هو عماد الدّراسات اللّغويّة الحديثة التي تُعنى بوصف البنية اللّغويّة، وتبيان وظائف اللّغة في الوقت نفسه.

الوظيفيّة: مفهومها_نشأتها _تطوّرها.

جاء في لسان العرب: "الوظيفة من كلّ شيء: ما يقدَّر له في كلّ يوم من رزق، أو طعام، أو علف، أو شراب، وجمعها الوظائف والوُظُف. ووظف الشّيء على نفسه ووظّفه توظيفاً. ألزمها إيّاه، وقد وظّفت له توظيفاً على الصّبيّ كلّ يوم حفظ آيات من كتاب اللّه عزّ وجلّ" (ابن منظور، 1999، 339).

وقد دخلت لفظة الوظيفة مجال العلوم المختلفة وتلوّنت معانيها بألوان تلك العلوم، سواء أكانت علوماً دقيقة كالرّياضيّات، والفيزياء والكيمياء...أم طبيعيّة كالبيولوجيا، أم إنسانيّة كاللّسانيّات والنّحو...(بعيطيش، 2006).

وليس غرضنا هنا تتبّع مفاهيم أو معاني الوظيفة في تلك العلوم المختلفة، وإنّما ذكر معناها في مجال اللّسانيّات. فالوظيفيّة مصدر صناعيّ من وظف، ويقصد بها عند أصحاب الاتّجاه الوظيفيّ التّداوليّ ارتباط بنية اللّغة بوظيفة التّواصل والتّبليغ والبيان ارتباطاً يجعل البنية انعكاساً للوظيفة وتابعة لها، وتقوم الوظيفيّة على أنْ فائدة الوحدات اللّسانيّة تكمن في الدّور الذي تؤدّيه في التّواصل (شارف، 2013).

فكلمة "وظيفة" في الدّراسة اللّغويّة لها معنيان:

1_ الوظيفة بمعنى الدّور الذي تؤدّيه اللّغة _بوصفها ظاهرة اجتماعيّة_ وهو التّواصل.

2_ الوظيفة بمعنى العلاقة التي تقوم بين عناصر الجملة كعلاقة الإسناد في الدّراسة الوظيفيّة للجملة، والعلاقات المقترحة في إطار الجهاز الوظائفيّ عند سيمون ديك والتي تشمل على مستويات تمثيليّة ثلاثة:

_مستوى لتمثيل الوظائف الدّلاليّة (وظيفة المنفّذ، والمتقبّل، والمستقبل، و المستفيد...).

_ و مستوى لتمثيل الوظائف التّركيبيّة (كوظيفتي الفاعل، و المفعول).

_ و أخيراً مستوى لتمثيل الوظائف التّداوليّة (كوظيفة المبتدأ، و المحور، والبؤرة، و المنادى، و الذّيل) (المتوكّل، 1986، 10).

لقد عرفت الوظيفيّة طريقها إلى الدّراسات اللّغويّة، بعد أن أقرّ دوسوسير بأنّ الوظيفة الأساسيّة للّغة هي الوظيفة التّبليغيّة؛ أي التّبليغ أوالتّواصل بين النّاس، وعُدَّ وقتَها هذا التّوجّه، اتّجاهاً جديداً في الدّراسة اللّغويّة، يقف موقفاً نقديّاً من التّوجه التّاريخيّ أو المقارن اللّذين سادا الدّراسات اللّغويّة قبل القرن العشرين، التي كانت تربط اللّغة بالفكر، وتربأ بها أن تنحطّ لتكون أداة تبليغ لعامّة النّاس ومن هذا التّوجّه الذي دشن دوسوسير منطلقه، واصل بعض أتباعه طريقهم، باحثين عن الوظائف اللّغويّة التي تؤدّيها مختلف العناصر اللّغويّة، داخل النّظام اللّغويّ العام للّغة (بعيطش، 2006، 11-12).

وما إن وصل العقد الثّالث من القرن العشرين، حتّى استقرّ المذهب الوظيفيّ في حقل الدّراسات اللّغويّة الحديثة بشيكوسلوفاكية مع حلقة براغ (Cercle de Prague) التي أسّسها فريق من الباحثين الرّوس، بقيادة تروبتسكوي (N. Troubetzkoy) وجاكبسون (R. Jakobson) وكارسيفسكي (S. Karcevski) ثمّ انضمّ إليهم فيما بعد لغويّون من بلدان أوروبيّة مختلفة، أسهموا إسهاماً فاعلا في بناء المذهب الوظيفيّ (بعيطيش، 2006، 12). وقامت منهجيّة حلقة براغ على مفهوم يقضي بأنّ اللّغة ينبغي أن تُدرَس كنظام له وظيفة وغاية محدّدتان (التّعبير، والتّواصل)، وله بالتّالي وسائل معيّنة لتأدية هذه الغاية.

وقد أفاد الفرنسيّ أندري مارتيني A.Martinet بحكم كونه عضواً نشيطاً في حلقة براغ اللّسانيّة من إدخال هذا المنهج في دراسته للتّركيب، فوضع بذلك علم التّركيب الوظيفيّ (Syntaxe Fonctionnelle)، فبحث عن وظيفة كلّ كلمة (Monemo) في التّركيب، واستخراج أصناف عديدة من الكلم (بوشحدان، 2002، 136). ويتعلّق الكلام في نظر مارتيني A.Martiniet باختيار المتكلّم أدواتِه التّعبيريّة بوعي فتحدّد وظيفة كلّ جزء من أجزاء الكلام بالشّحنات الإخباريّة التي يحمّله إيّاها المتكلّم فتكون الوظيفة قيمة تمييزيّة من النّاحية الدّلاليّة العامّة (إبرير، 2007).

ووضعت_ إضافة إلى تحليل مارتيني_ نماذج متنوّعة للوظائف اللّغويّة أشهرها نموذج بوهلر(Buhler)، ونموذج جاكبسون (Jakobson)؛ إذ انطلق بوهلر من التّصوّر النّفسيّ في رصد وظائف اللّغة التي ترتبط بالشّخص المتكلّم في علاقته بمجتمعه وثقافته، وهذه الوظائف هي: الوظيفة التّعبيريّة الانفعاليّة المرتبطة بالمرسِل، والوظيفة التّأثيريّة الانتباهيّة المرتبطة بالمخاطَب، والوظيفة التّمثيليّة المرتبطة بالمرجع (حمداوي، 2012).

وقد تمثّل جاكبسون بعض هذه الوظائف في نموذجه التّواصلي، وارتأى أنّ للّغة ستّة عناصر هي: المرسِل، والرّسالة، والمرسَل إليه، والقناة، والمرجع، واللّغة. ولكلّ عنصر وظيفة خاصّة: فالمرسل وظيفته انفعاليّة تعبيريّة، والرّسالة وظيفتها جماليّة من خلال إسقاط محور الاستبدال على محور التّركيب، والمرسَل إليه وظيفته تأثيريّة وانتباهيّة، والقناة وظيفتها حفاظيّة، والمرجع وظيفته مرجعيّة أو موضوعيّة، واللّغة وظيفتها لغويّة أو وصفيّة (حمداوي، 2006).

وأمّا في إنجلترا فقد اهتمّ اللّسانيّ هاليدي M.A.K.Halliday بالنّحو الوظيفيّ Functional Grammar. إلّا أنّ نظرته للوظيفة مختلفة تماماً عن نظرة مارتيني بخاصّة، والتّحليل الوظيفيّ لعلماء مدرسة براغ بعامّة. فطريقته لا تتناول اللّغة من الدّاخل انطلاقاً من القواعد الصّرفيّة والتّركيبيّة، ولكن من الخارج انطلاقاً ممّا يمكن أن تقدّمه لنا في التّبليغ. أمّا التّنظيم الدّاخليّ للّغة عنده فهو انعكاس للوظائف التي تؤدّيها في التّبادل الكلاميّ (بوشحدان، 2002، 136).

وترجع أصول نظريّة النّحو الوظيفيّ إلى البلدان المنخفضة (BAS_ PAYS)، وبالتّحديد إلى مدينة أمستردام الهولنديّة، مع مؤسّسها سيمون ديك، في كتابه (النّحو الوظيفيّ) سنة 1978. وفي سنة 1989 تمّ تطوير الصّيغة الأولى للنّحو الوظيفيّ في كتاب آخر يحمل الجزء الأوّل منه عنوان (نظريّة النّحو الوظيفيّ_ بنية العبارة)، ويحمل الجزء الثّاني منه عنوان (نظريّة النّحو الوظيفيّ_ العبارات المشتقّة، والعبارات المركّبة) وقد نشر سنة 1997 بعد وفاة صاحبه بنحو سنتين (البوشيخي، د.ت).

لقد قدّم ديك أبحاثاً عديدة رسم فيها الإطار النّظريّ والمنهجيّ لنظريّة النّحو الوظيفيّ، وسار على نهجه مجموعة من العلماء الذين أجروا دراسات لغويّة متنوّعة، تجاوزت عقدين من الزّمن، وعنيت بمجالي الدّلالة والتّداول، أو المعجم والتّركيب في لغات مختلفة، تنتمي إلى فصائل متباينة نمطيّاً، كاللّغة الهولنديّة، والإنجليزيّة، والفرنسيّة، والعربيّة. (المتوكل،2009، 7).

لقد مرّت نظريّة النّحو الوظيفيّ ، منذ نشأتها إلى يومنا هذا، بثلاثة نماذج نحويّة هي:

أ_ نموذج النّحو الوظيفيّ النّواة، أو نموذج ماقبل المعيار(1978_1988):

وشمل بصفة عامّة كلّ الدّراسات التي مسّت مجال الدّلالة والتّداول والمعجم والتّركيب في إطار الكلمة المفردة، والمركّب، والجملة (البسيطة، والمركّبة)، مع التّركيز أساساً على الجملة البسيطة.

ب_ نموذج النّحو الوظيفيّ المعيار (1989_1997):

وشمل جملة من الدّراسات التي مسّت بعض القضايا المعجميّة والتّركيبيّة والتّداوليّة، في إطار الجملة المركبة والمعقّدة؛ إذ أعادت هذه الدّراسات النّظر في القضايا آنفة الذّكر، ومحّصتها، وعمّقتها ووسّعتها بإجراء بعض التّعديلات عليها لتناسب إنتاج الخطاب أو النّصّ الذي أصبحت فيه الملكة اللّغويّة ملكة نصيّة، تتشكّل من زمرة من الملكات التي تتفاعل فيما بينها في أثناء عمليّتي إنتاج الخطاب وفهمه.

ج_ نموذج النّحو الوظيفيّ ما بعد المعيار (1997_...):

و هو النّموذج الذي لا يزال في طور النّشأة والتّعديل والتّحسين، وبحاجة إلى بحوث مكثّفة تمحّص وتغني فرضيّته الأساسيّة القائمة على أطروحة التّماثل البنيويّ الوظيفيّ للخطاب، ومفادها أنّ بنية الخطاب الطّبيعيّ بنية واحدة، تنعكس بكيفيّة واحدة في نموذج مستعمل اللّغة الطّبيعيّة، سواء تعلّق الأمر بأقسام الخطاب (الكلمة_ المركّب_ الجملة_ النّصّ)، أو باللّغات المختلفة المتباينة نمطيّاً (كاللّغات الهندوأوروبيّة، واللّغات السّامية...)، أو بالأنماط التّبليغيّة المختلفة اللّغويّة وغير اللّغويّة (كإشارات البكم الصّمّ، والرّسم، والموسيقى، والسّينما...) (بعيطيش، 2006، 78_79).

دخلت هذه النّظريّة العالم العربيّ أوّل ما دخلت عبر جامعة محمّد الخامس بالرّباط؛ إذ شكّلت مجموعة البحث في التّداوليات واللّسانيّات الوظيفيّة. وبفضل جهود الباحثين المغاربة المنتمين إلى هذه المجموعة، تسنّى للمنحى الوظيفيّ أن يأخذ محّله في البحث اللّسانيّ المغربيّ إلى جانب مكوّناته الأخرى. وقد تمّ ذلك عن أربع طرق رئيسة هي: التّدريس، والبحث الأكاديميّ، والنّشر، وعقد ندوات دوليّة داخل المغرب نفسه.

(أ) شُرع في تدريس النّحو الوظيفيّ في مستهلّ السّنوات الثّمانين بجامعة محمّد الخامس بالرّباط وبالتّحديد في شعبتي اللّغة الفرنسيّة واللّغة العربيّة معاً، ثمّ توسّع تدريسه بفضل الأساتذة اللّسانيّين المتخرّجين من هذه الجامعة ليشمل جامعات أخرى كجامعة الحسن الثّاني بالدّار البيضاء، والمحمّديّة وجامعة مولاي إسماعيل بمكناس، وجامعة شعيب الدّكالي بالجديدة، وجامعة القاضي عياض بمراكش، وجامعة ابن زهر بمدينة أكادير، وجامعة القاضي عياض بمدينة بني ملال، وجامعة عبد المالك السّعدي بتطوان.

وفي السّياق نفسه عمل الأساتذة مفتّشو التّعليم الثّانويّ على إدخال النّحو الوظيفيّ إلى هذا القطاع التّعليميّ المهمّ عن طريق الكتاب المدرسيّ إلى جانب النّحو العربيّ القديم والنّحو التّوليديّ_ التّحويليّ.

(ب)_ أخذت نظريّة النّحو الوظيفيّ قسطاً مهمّاً من البحث الجامعيّ بالمغرب فقد هُيّئت رسائل إجازة وأطروحات دكتوراه لا يستهان بعددها وقيمتها العلميّة بجامعة محمّد الخامس بالرّباط وغيرها من الجامعات المغربيّة استهدفت وضع أنحاء وظيفيّة (أو أقساط أنحاء وظيفيّة) للّغة العربيّة الفصحى أساساً ولدوارجها (المغربيّة وغير المغربيّة) وللّغات الأمازيغيّة المغربيّة وكذلك للّغة الفرنسيّة.

(ج) بموازاة البحث الأكاديميّ الصّرف، قام لسانيو مجموعة البحث في التّداوليات واللّسانيات الوظيفيّة بأعمال نشرت بالعربيّة وبلغات أجنبيّة داخل المغرب وخارجه.

(د) شارك عدد من اللّسانيّين الوظيفيّين في ندوات النّحو الوظيفيّ الدّوليّة خارج المغرب ، وإلى جانب ذلك عقدت مجموعة البحث في التّداوليات واللّسانيات الوظيفيّة ثلاث ندوات وطنيّة حضرها باحثون وظيفيّون أجانب بجامعة المحمّديّة وبني ملال وأكادير، وكان الهدف من تنظيم هذه النّدوات:

1_ تمكين الأساتذة والطّلبة المغاربة من الاطّلاع على آخر تطوّرات نظريّة النّحو الوظيفيّ.

2_ مناقشة مدى استثمار هذه التّطورات في مقاربة المعطى المحلّي عربيّاً كان أم غير عربيّ.

ويعدّ المغرب بحقّ جسراً لعبور النّحو الوظيفيّ إلى أقطار عربيّة أخرى فبفضل المؤلّفات والبحوث المغربيّة دخل الجزائر، وتونس، وموريتانيا، والعراق، وسورية بدرجات متفاوتة في التّبنّي ورقعة الانتشار.

لقد استطاع المنحى الوظيفيّ أن يحتلّ موقعه داخل البحث اللّسانيّ المغربيّ الزّاخر وأن يعايش باقي مكوّناته القديمة والحديثة في سلام نسبيّ وأعانه على ذلك، في رأي المتوكّل، ثلاثة أمور أساسيّة:

1_ الاجتهاد المستمرّ للباحثين الذين تبنّوه.

2_ انتهاجه نهجاً مغايراً في البحث.

3_ أنّه لم يستهدف قطّ إقصاء المقاربات الأخرى بل على عكس ذلك، ظلّ يستفيد منها رؤى ونتائج كلّما دعت الحاجة واستطاع إلى ذلك سبيلاً، مؤمّناً أشدّ الإيمان بوحدة البحث اللّسانيّ ونسبيّته، وإمكان التّحاور الممنهج بين مذاهبه حتّى وإن فصل بينها مرور الزّمن (المتوكّل، 2006، 61_ 62_ 63).

وهكذا نرى أنّه قد كثر الحديث في السّنوات الأخيرة عن الاتّجاه الوظيفيّ الذي توسّعت مجالات دراسته، ونما وتطوّر طوال عقود القرن العشرين إلى يومنا هذا؛ إذ أفرز العديد من النّظريّات اللّغويّة الوظيفيّة التي أغنته بمفاهيم ومصطلحات جديدة، سواء في حقول الدّراسات اللّسانية النّظريّة، أم في مجال اللّسانيّات التّطبيقيّة.

الاتّجاه الوظيفيّ في التّراث العربيّ:

لم يكن الإحساس بثقل المادّة النّحويّة وليد العصر الحاضر؛ إذ إنّ هذا الإحساس تزامن مع كثرة الافتراضات والمماحكات والتّأويلات والخلافات بين المدارس النّحويّة، وهذا ما دعا بعضهم إلى الشّكوى والتّذمر من الشّذوذ والاستثناء والتّاويل فها هو ذا (ذمار) صاحب أبي عبيدة يشكو إلى أبي عثمان بكر المازنيّ شيخ نحاة البصرة في عصره ما لقيه من عنت في موضوع واو المعيّة وفاء السببيّة من أنّ ما بعدهما ينصب بأن مضمرة وجوباً، وها هو ذا الجاحظ يدعو في إحدى رسائله إلى الاقتصار في تعليم النّحو للصّبيّ على الموضوعات الأساسيّة التي تؤدّي إلى السّلامة من فاحش اللّحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه (السّيّد، د.ت، 43_44).

وتتجدّد الدّعوة لهذا النّوع على يد ابن مضاء القرطبيّ الذي راح يدعو إلى الاكتفاء بتعليم النّحو الذي يقتصر على المباحث التي تساعد المتعلّمين في بلوغ الهدف المنشود دون تجاوز القدر الكافي الذي يؤدّي إلى وعورة مسالك العربيّة (الزّهراني، 2007).

ومن المحاولات العمليّة في العصور السّابقة محاولة خلف بن حيّان الأحمر البصريّ في رسالته (مقدّمة في النّحو)، ومحاولة أبي جعفر النّحاس النّحويّ في كتيّبه (التّفاحة في النّحو)، وتشتمل الرّسالة كما يشتمل الكتيّب على الموضوعات النّحويّة الأساسيّة التي يحتاج إليها المتعلّم في إصلاح لسانه في كتاب إن كتبه، أو شعر إن أنشده، أو خطبة إن ألقاها، أو رسالة إن ألّفها، على وفق تعبير خلف نفسه (السّيّد، د.ت، 44).

وإذا التفتنا إلى تراثنا اللّغويّ الموزّع بين كتب النّحو، واللّغة، والبلاغة، والفقه، وأصول الفقه، والتّفسير، والقراءات_بما هو وحدة واحدة_ وجدنا فيه اتّجاهين بارزين يماثلان اتّجاهي النّظريّات اللّسانيّة المعاصرة أحدهما: يعنى بالنّظام اللّغويّ الذي يشمل أنظمة فرعيّة صوتيّة وصرفيّة ونحويّة ودلاليّة، لكلّ منها مكوّناته وعناصره، وعلاقاته بالمكوّنات والعناصر الأخرى داخل النّظام الفرعيّ، ثمّ علاقة كلّ نظام فرعيّ بالآخر، دون التفات مقصود إلى مقتضيات المقام وقرائن الأحوال. والثّاني يعنى بالمقام وما يتّصل به من قرائن غير لفظيّة تشمل منزلة المتكلّم والسّامع وعلاقة كلّ منهما بالآخر، وحالة كلّ منهما النّفسيّة والذهنيّة، وحركاته الجسميّة، وسكوته، والبيئة المكانيّة التي تشهد الحدث اللّغويّ وجمهور المشاركين فيه.

ولعلّ أبرز علماء البلاغة الذين ربطوا ربطاً واعياً بين بنيات التّركيب وظروف إنجازها الإمام عبد القاهر الجرجانيّ في كتابه "دلائل الإعجاز؛ فقد بيّن في الفصول الأولى منه أنّ النّحو الذي يُعنى بالإعراب والصّرف والأصوات...لا يمكن أن يُعدّ نحواً، وإنّما النّحو ما يتعدّى وصف الخصائص اللّفظيّة إلى رصد العلاقات القائمة بين اللّفظ والمعنى.

يقول عبد القاهر: "إنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتّى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وإنّ الأغراض كامنة فيها حتّى يكون هو المستخرج لها، وإنّه المعيار الذي لا يتبيّن نقصان كلام ورجحانه حتّى يعرض عليه" (والي، 1994، 17).

إنّ النّحو عند الجرجانيّ هو الوصف الذي يجاوز رصد الخصائص اللّفظيّة إلى رصد العلاقات القائمة بين اللّفظ والمعنى كونه (أي المعنى) مجموع الوسائط التي تتفاعل في تحديد الصّورة التّركيبيّة للجملة. بهذا المعنى يمكن القول إنّ النّحو الذي كان يدعو إليه الجرجانيّ نحو وظيفيّ لقيامه على مبدأ ضرورة الرّبط بين اللّغة والوظيفة التي تؤدّيها في التّواصل (بن عزيزة، 2008).

وما يؤكّد أكثر علاقة الخطاب بالسّياق إيراد "ابن خلدون" لعناصر لغويّة لا يمكن معرفة دلالتها ومرجعيّاتها إلا بالرّجوع إلى حال الخطاب الذي قيلت فيها وهي المبهم والموصول... وقد أكّد ابن خلدون أنّه أيّاً كانت المعلومات المفهوميّة التي يحتويها الخطاب، فإنّه يتضمّن سلسلة متكاملة من العناصر تشير إلى درجة حضور المتكلّم والصّورة التي يكوّنها عن المخاطب (بلخير، وبوكرمة 2013، 8).

وهكذا نجد أنّ الاتّجاه الوظيفيّ في تدريس النّحو ليس غريباً عن العرب القدماء، بل هم من أسّسوا له ووضعوا أصوله؛ إذ أدركوا بفطنتهم أنّ النّحو لابدّ أن يدرس من الجانب الوظيفيّ الذي يحتاج إليه المتعلّم، وبهذا "اقتصر عمل التّربويّين المحدثين فيه على تجريده من فلسفة العوامل النّحويّة والتّخريجات التي لا جدوى منها، والتمسوا منه ما يعين على صحّة الكلام والكتابة، وسلامة الضّبط، وتأليف الجمل تأليفاً خالياً من الخطأ النّحويّ" (الزّهرانيّ، 2007، 37، عن سمك، 1986، 65).

المبادئ الوظيفيّة في نظريّة النّحو الوظيفيّ:

حدّد منظّرو الاتّجاه الوظيفيّ على أساس معيار"الوظيفة" الذي هو أهمّ ما يميز نظريّة النّحو الوظيفيّ منطلقات منهجيّة وأسساً تقوم عليها نظريّتهم سمّيت المبادئ الوظيفيّة، نلخّص أهمّها فيما يأتي:

1_ الوظيفة الأساسيّة للّغات الطّبيعيّة هي وظيفة التّواصل:

النّحو الوظيفيّ نظريّة لسانيّة تسعى إلى وصف اللّغات الطّبيعيّة وظيفيّاً وذلك كون الخصائص البنيويّة للّغات محدّدة (جزئيّاً على الأقل) بما تسعى هذه اللّغات إلى تحقيقه من أهداف تواصليّة. فاللّغويّون الوظيفيّون يجمعون على أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة تختلف بنياتها من مجتمع لآخر، وتشترك عند كلّ المجتمعات في وظيفة واحدة، فهي تستعمل لإقامة التّواصل بين البشر وهو وظيفتها الأساسيّة، وهذا لا ينفي أنّها تقوم بوظائف ثانويّة أخرى كالوظائف السّتّ التي أقرّها جاكبسون (الوظيفة المرجعيّة (أوالإحاليّة)، والوظيفة التّعبيريّة، والوظيفة التّأثيريّة، والوظيفة الشّعريّة، والوظيفة اللّغويّة، والوظيفة الميتالغويّة)، والوظائف الثّلاث لهاليدي (الوظيفة التّمثيليّة، والوظيفة التّعالقيّة، والوظيفة النّصيّة).

2_ تبعيّة البنية للوظيفة:

اللّسان الطّبيعيّ بنية تؤدّي وظيفة أساسيّة هي التّواصل؛ إذ تتحدّد الخصائص البنيويّة لعبارات هذا اللّسان (صرف، و تركيب، وتنغيم) انطلاقاً من الأغراض التّواصليّة التي تستعمل هذه العبارات وسائل لتحقيقها، فبين البنية والوظيفة علاقة تبعيّة؛ فبنية العبارات اللّغويّة تعكس إلى حدّ بعيد وظيفتها التّواصليّة في واقع لغويّ محدّد، وفي ظلّ معطيات إنجازيّة خاصّة، وهذا مبدأ منهجيّ عامّ معتمد في اللّسانيّات الوظيفيّة، واستجابة لهذا المبدأ المنهجيّ تدرس ظواهر اللّغة بوصفها كلاماً محدّداً مستعملاً من قبل مخاطِب محدّد في ظروف محدّدة موجّهاً إلى مخاطَب محدَّد لأداء وظيفة تواصليّة محدّدة. وهذا أهمّ مبدأ يقوم عليه الدّرس الوظيفيّ المعاصر، فالبنية التّركيبيّة والصّرفيّة تعكس إلى حدّ بعيد الخصائص المرتبطة بوظيفة التّواصل؛ إذ يمكن عدّ بعض مقوّمات هذه البنية وسائل للتّعبير عن الأغراض التّواصليّة التي يسعى المتكلّم إلى تحقيقها في طبقات مقاميّة معيّنة.

3_ موضوع الدّرس اللّسانيّ هو وصف "القدرة التّواصليّة" (للمتكلّم/المخاطَب):

موضوع الدّرس اللّغويّ عند الوظيفيّين التّداوليّين هو وصف القدرة التّواصليّة للمتكلّم/ المستمع، التي تجمع بين النّحو والتّداول، مخالفين بنظرتهم هذه ما ذهب إليه تشومسكي الذي يرى أنّ القدرة قدرتان: قدرة نحويّة صرف، وقدرة تداوليّة، وبالرّغم من هذا الاختلاف نجد كلّ النّظريّات اللّسانيّة تكاد تجمع على أنّ موضوع الدّرس اللّسانيّ والوصف اللّغويّ هو وصف القدرة التّواصليّة للمتكلّم/ المخاطَب وتختلف في تحديد هذه القدرة. والقدرة التّواصليّة في نظريّة النّحو الوظيفيّ يحدّدها ديك بأنّها ما يمكّن (مستعملي اللّغة الطّبيعيّة) من التّواصل فيما بينهم بواسطة العبارات اللّغويّة، أي ما يمكّنهم من التّفاهم والتّأثير في مدّخرهم المعلوماتيّ (بما في ذلك من معارف، وعقائد وأفكار مسبقة وإحساسات) والتّأثير حتّى في سلوكهم الفعليّ عن طريق اللّغة.

4_ يجب أن يسعى النّحو الطّامح إلى الكفاية إلى تحقيق ثلاثة أنواع من الكفايات:

تنفرد نظريّة النّحو الوظيفيّ لسيمون ديك بمبدأ آخر إضافة إلى مبدأ تبعيّة البنية للوظيفة هو وجوب أن يسعى النّحو الطّامح إلى الكفاية إلى تحقيق ثلاثة أنواع من الكفايات:

أ_ الكفاية التّداوليّة:

الكفاية التّداوليّة هي ما يربط بين خصائص العبارات اللّغويّة وكيفيّة استعمالها في سياق ومقام خاصّين، وتتحقّق هذه الكفاية في نحوٍ ما إذا كان قادراً على كشف التّفاعل القائم بين بنية اللّغات الطّبيعيّة ووظيفتها التّواصليّة. ويبيّن ديك أنّ المراد من النّحو الوظيفيّ أن يكشف لنا عن خصائص العبارات اللّغويّة التي لها علاقة بالكيفيّة التي تستعمل بها هذه العبارات، وأن يفعل ذلك بالطّريقة التي تمكّن من ربط هذه الخصائص بالقواعد والمبادئ التي تحكم التّفاعل اللّغويّ، فلا تحقّق للكفاية التّداوليّة من دون تفاعل بين البنية والوظيفة في سياق حديث خاصّ ومقام محدّد.

ب_ الكفاية النّفسيّة:

يسعى النّحو الوظيفيّ إلى تحقيق الكفاية النّفسيّة، في وصفه البنيات اللّغويّة من حيث إنتاجُها وفهمها وتحليلها ولا يتأتّى ذلك إلا بعدم مخالفة ما وصلت إليه علوم النّفس بصفة عامّة وعلم اللّغة النّفسيّ بصفة خاصّة من نتائج وحقائق، يقول المتوكّل: "يكون النّحو كافياً نفسيّاً إذا لم يتعارض مع الفرضيّات النّفسيّة حول إنتاج اللّغة وفهمها" ويتمّ ذلك بالإفادة من نتائج أبحاث علم النّفس، وعلم اللّغة النّفسيّ، ومتابعة تطوّرات النّماذج النّفسيّة ومطابقتها سواء منها "نماذج الإنتاج"؛ أي إنتاج المتكلّم العبارة اللّغويّة وصياغتها أم"نماذج الفهم"؛ أي تحديد الطّريقة التي يحلّل بها المخاطب العبارة اللّغويّة ويؤوّلها التّأويل الملائم. وبذلك تطابق قواعد هذا النّحو العمليّات القائمة في ذهن المتكلّم/ المستمع في أثناء إنتاج الخطاب وفهمه، فالنّحو الوظيفيّ يلغي من نموذجه القواعد التي شكّك في واقعيّتها النّفسيّة كالقواعد التّحويليّة.

ج_ الكفاية النّمطيّة:

تتمثّل الكفاية النّمطيّة في محاولة وضع نموذج شبه جامع لوصف أكبر قدر ممكن من اللّغات، ويحقّق النّحو الكفاية النّمطيّة إذا استطاع أن يضع نحواً للغات طبيعيّة نمطيّاً، وأن يصف ما يؤالف وما يخالف بين هذه اللّغات المختلفة ، وتقتضي الكفاية النّمطيّة في لغة ما أن تظلّ قواعد وصف ظواهرها لاصقة بخصائصها، وأن تتميّز بدرجة عالية من التّجريد لتستطيع وصف الظّاهرة نفسها في أكبر عدد من اللّغات الطّبيعيّة.

ويصعب تحقّق هذا النّوع من الكفاية بل قد يستحيل، ومردّ هذا أنّ كلّ لغة تتميّز بخصائص إبستمولوجيّة ومقوّمات فكريّة وانتماء حضاريّ. يشير المتوكّل إلى هذه الصّعوبة بقوله: "فإن اقتربت كثيراً من الوقائع اللّغويّة للغات معيّنة كان من العسير انطباقها على لغات أخرى وإذا كانت موغلة في التّجريد أصبحت عاجزة عن رصد الوقائع

اللّغويّة كما تحقّق في لغات معيّنة. وهكذا، يتعيّن على النّظريّة الرّامية إلى الحصول على درجة معقولة من الكفاية النّمطيّة أن تصوغ مبادئها وقواعدها وتمثيلاتها متوخيّة توسّطاً بين التّجريد والملموسيّة يؤهّلها لوصف أكبر عدد ممكن من اللّغات الطّبيعيّة (شارف، 2013، 23_24_ 25_ 26).

ممّا سبق نجد أنّ نظريّة النّحو الوظيفيّ تعمل على الرّبط بين النّحو وكلّ نشاط لغويّ؛ إذ لا بدّ من وجود النّحو في كلّ حديث وموقف كتابيّ، فهو تقويم اللّسان من الخطأ، وتقويم القلم من الزّلل. إنّها نظريّة تسعى دوماً إلى التّطوير والتّعديل، ولا يزال منظورها في بحث مستمرّ، وتحوير وتجديد.

أهداف نظريّة النّحو الوظيفيّ:

تهدف نظريّة النّحو الوظيفيّ إلى:

1_ مساعدة الرّاغب في الإلمام بقواعد النّحو الضّروريّة في تذكّر ما سبق له دراسته من تلك القواعد، والتي تُعدّ أساسيّات علم النّحو.

2_ تنقية المعلومات السّابقة ممّا يكون قد علق بها من شوائب عبر سنوات الدّراسة المتوالية، وما وقع فيها من خلط، ثمّ العمل على تثبيتها عن طريق التّدريبات الكثيرة، والتّمارين المتنوّعة.

3_ تنمية القدرة على التّطبيق بدلاً من الاقتصار على مجرّد حفظ القاعدة النّحويّة.

4_ تنمية القدرات العقليّة لفهم القواعد النّحويّة والصّرفيّة من خلال مراجعها الأصليّة، وذلك بالتّدريب على سبر أغوار بعض كتب التّراث في هذا المجال الشّديد الأهمّيّة.

5_ تمكين الرّاغب في استخدام اللّغة العربيّة استخداماً جيّداً من النّطق الصّحيح، والكتابة السّليمة، والفهم الجيّد (والي، 1994).

ولتحقيق أهداف النّحو الوظيفيّ اقتُرحت مجموعة من النّقاط نجملها في الآتي:

1_ أن يقتصر في تعليم النّحو على ما يتّصل بحاجات المتعلّمين في أثناء الاستعمال العاديّ للّغة.

2_ أن يتمّ علاج نواحي الضّعف التي يعاني منها المتعلّمون في القواعد المختلفة بطريقة فرديّة قدر الإمكان؛ لأنّ النّظرة الفرديّة في علاج ضعف المتعلّمين أفضل من العلاج الجمعيّ الذي تضيع معه الفائدة على كثير من المتعلّمين.

3_ مساعدة المتعلّمين في صحّة الضّبط، وإكسابهم القدرة على تأليف الجملة العربيّة تأليفاً صحيحاً.

4_ التّركيز على ممارسة المتعلّمين السّلوك المراد تعلّمه.

5- عرض مواقف لغويّة لاستعمال القاعدة والتّدريب عليها.

6_ تدريس النّحو في ظلّ الأساليب؛ أي باختيار قطعة تشتمل على أمثلة القاعدة النّحويّة.

7_ التّخفيف من النّحو غير الوظيفيّ؛ أي النّحو الذي لا يستفاد منه إلّا في حالات نادرة في ضبط الكلمات، ويتحقّق ذلك عن طريق الوقوف على الأبواب الوظيفيّة التي يمكن استغلالها في الحياة العمليّة (الزّهرانيّ، 2007).

الخاتمة:

نخلص من خلال ما تقدّم إلى أنّ نظريّة النّحو الوظيفيّ نظريّة تستند إلى البعد التّداوليّ للّغة، وتعطي جلّ اهتمامها لوظائف المكوّنات في الجملة بحكم أنّها وسيلة التّواصل الرّئيسة بين المتكلّم والمخاطَب.

إنّ أهمّيّة التّدريس الوظيفيّ للنّحو تتجلى في كونه ضماناً لتحقيق الطّلاقة اللّغويّة التي تعكس قدرات الفرد اللّغويّة، وتسهم في إثبات ذاته، وتؤدّي إلى تفاعله الاجتماعيّ، إذ يختار في حديثه ما يحقّق له الهدف منه، ويندر أن تخونه ذاكرته عند الحديث أو الكتابة؛ لأنّها تختزن ما يفيده، وما يجد نفسه دائماً يستخدمه.

ومن هنا تعلو الصّيحات التي تنادي بضرورة تطبيق مبادئ نظريّة النّحو الوظيفيّ في الميدان التّربويّ بهدف الوصول إلى مُخرَج تعليميّ يتّسم بالجودة، والقدرة على توظيف ما تعلّمه في الحياة العمليّة.

المراجع:

1_ إبرير، بشير إبراهيم. *تعليميّة النّصوص بين النّظريّة والتّطبيق*. ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2007.

2_ ابن منظور. *لسان العرب*. ط3، طبعة مصحّحة وملوّنة اعتنى بتصحيحها: أمين محمّد عبد الوهاب، ومحمّد الصّادق العبيدي، دار إحياء التّراث العربيّ؛ ومؤسّسة التّاريخ العربيّ، بيروت، 1999.

3_ بعيطيش، يحيى. *نحو نظريّة وظيفيّة للنّحو العربيّ* . أطروحة دكتوراه دولة في اللّسانيّات الوظيفيّة الحديثة، وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ، الجزائر، 2006.

4_ بلخير، عمر؛ وبوكرمة، فاطمة الزّهراء. *نحو قراءة جديدة للتّراث العربيّ والإسلاميّ بالوقوف على تداوليّة الأفعال الكلاميّة* . بحث مقدّم للمؤتمر الدّوليّ الذي نظّمته جامعة إمام بونجول الإسلاميّة الحكوميّة في بادانج_ إندونيسيا، واتّحاد مدرّسي اللّغة العربيّة بإندونيسيا " خطاب التّجديد في الدّراسات العربيّة بين النّظريّة والتّطبيق: حالة الحقل" عقد بمدينة بادانج_ سومطرة الغربيّة_ إندونيسيا، في فترة 21_24 شوال 1434هـ 28_31 أغسطس 2013.

5_ بن عزيزة، هدى. *علاقة البنية بالوظيفة في مفتاح العلوم للسّكاكي* . رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008.

6_ بوشحدان، شريف. *لغة وظيفيّة أم تعليم وظيفيّ*. مجلّة العلوم الإنسانيّة، بسكرة، العدد الثّالث، 2002.

7_ البوشيخي، عزّ الدّين. *نحو تصوّر جديد لبناء المعجم العلميّ العربيّ المختصّ (معجم المصطلحات اللّسانيّة نموذجاً)*. مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، دمشق، المجلّد الثّامن والسّبعون، الجزء الرّابع، دون تاريخ.

8_ حمداوي، جميل. *مفهوم التّواصل: النّماذج والمنظورات* . دراسة محكّمة نُشرت في موقع "ديوان العرب" بتاريخ 31_12_ 2006. http://www.diwanalarab.com/spip.php?article7229

9_ حمداوي، جميل. *نظريّات وظائف اللّغة*. صحيفة المثقّف، 2012.

10_ الزّهراني، محمّد بن سعيد بن مجحود. *مستوى تمكّن طلبة اللّغة العربيّة في كليّة المعلّمين من مهارات النّحو الوظيفيّ*. بحث مكمّل لنيل درجة الماجستير في مناهج وطرائق تدريس اللّغة العربيّة، جامعة أمّ القرى، السّعوديّة، 2007.

11_ السيّد، محمود أحمد. *من مواضيع تيسير تعليم النّحو وحلول مقترحة*. دون تاريخ.

12_ شارف، الطّاهر. *أثر الوظيفة التّواصليّة في البنية الصرفيّة العربيّة* . رسالة ماجستير في الآداب واللّغة العربيّة، تخصّص علوم اللّسان العربيّ، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، 2013.

13_ المتوكّل، أحمد. *دراسات في نحو اللّغة العربيّة الوظيفيّ*. ط1، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، الدّار البيضاء، 1986.

14_ المتوكّل، أحمد. *مسائل النّحو العربيّ في قضايا الخطاب الوظيفيّ.* ط1، دار الكتب الجديدة المتّحدة، بيروت، 2009.

15_ المتوكّل ، أحمد. *المنحى الوظيفيّ في الفكر اللّغويّ العربيّ_ الأصول والامتداد.* ط1، مكتبة دار الأمان، الرّباط، 2006.

16_ والي، فاضل فتحي محمّد. *النّحو الوظيفيّ.* ط1، دار الأندلس للنّشر والتّوزيع، حائل، 1994.